خليفـــة حافظ

[بحث نشرته مجلة العصبة البرازيلية فى عددها الممتاز]

للأستاذ توفيق ضعون

لما كنتُ من عشّاق الشعر السائغ، السهل المبنى، الواضح المعنى، المؤدى صورة صادقة من عاطفة ناظمه وهدفه فى الوجود، ومن كارهى الإغراق والتعقيد ومواراة المعنى المقصود وراء أكثف الحجب التى لا تخترقها البصيرة ولا تعين على استجلائها كتب اللغة ومعاجمها، بحيث يصبح الشعر كناية عن رموز وطلاسم لا يحلها إلا الله والراسخون فى العلم — فلا بدع أننى كلما وقعت فى يدى جريدة أو مجلة رحتُ أقلب صفحاتها علّى أعثر على سطور مشطّرة فأقرأ مطلعها راجياً أن يستدرجنى إلى قراءة ما يليه وإلا اكتفيتُ به وقلبت الصفحة آسفاً، نادماً على الوقت الذى أضعتهُ، لأن المطلع عندى بمثابة الوجه الذى قد تستهويك النظرة الأولى إليه فتقبل على صاحبه، أو تنفرك فتعرض عنه

وكان خير ما يستهوينى، نظراً إلى استيفائه الشروط المقدّم ذكرها، شعر حافظ ابراهيم، فلما ارتحل عن هذا الوجود أخذتُ أفتش فى صفحات المجلات المصرية عن خليفة له أجلسه على عرش إعجابى واحترامى فلا أجد، حتى وقع يوماً فى يدى جزء من مجلة الرسالة التى وجدت فيها ضالتى من حيث الأدب العالى والثقافة العميقة الدقيقة، فقلبت بعض صفحاته وإذا بى أعثر على أبيات من الشعر استهوانى مطلعها واستدرجنى إلى الإتيان عليها حتى ختامها. وكنا فى إدارة « العصبة » فرحتُ أتلو على مسامع الإخوان تلك الأبيات التى لستُ فيها روح حافظ وأسلوبه الطلىّ الأخاذ فشاطرونى رأيى. وطفقت منذ ذلك الحين أتلمس آثار محمود غنيم الأدبية فى تلك المجلة الفنيّة بنتاج أدمغة المجلين فى مضمار الأدب فى ذلك القطر السعيد

وعلمت بعد التنقيب أن محمود غنيم مدرّس فى كوم حماده إحدى قرى الصعيد (الصواب أنها فى مديرية البحيرة) يحمّل شعره المجنح شكواه من سوء حاله وضيق مجاله، فهو يحسب نفسه سجيناً فى تلك القرية يتوق إلى الإفلات منها ولا توق الطائر الغرّيد إلى الإفلات من قفصه ولو كان من ذهب فكيف به وهو من معدن بخس وخشب. مجال ضيق وعيش على وتيرة واحدة يسئم النفس، وعشرة لا مطمع فيها للأديب الذى يؤثر تغذية روحه على تغذية جسده. وعلام أطيل فى تصوير الحال التى هو فيها، وقد وصفها هو على أدق وأكمل شكل فى القصيدة التالية وعنوانها « كأس تفيض ». قال :

تملّتُ دهراً بالمنى فإذا بها ... قواريرُ من مسّ الصبا تتحطمُ
لعمرك لا أدرى على أىّ منطق ... أشاهد فى مصر الحظوظَ تقسمُ
فمن يكُ ذا قربى وصهرٍ فإننى ... بمصرَ وحيدٌ لا شقيقٌ ولا حمُ
فلا غروَ أنى قد سكنتُ بأرضها ... كما سكنتْ أهرامها والمقطمُ

* * *

أيذوى شبابى بين جدران قريةٍ ... يبابٍ كأن الصمتَ فيها مخيّمُ
أكاد من الصمت الذى هو شاملى ... إذا حسب الأحياء لم أكُ منهمُ
وعاشرتُ أهليها سنينَ وإننى ... غريبٌ بأحساسى وروحىَ عنهم
يقولون : خضراء المرابع ِ نضرةٌ
فقلتُ : هبوها ؛ لست شاةً تُسوّم
على رَسلكم إنى أقيم بقفرةٍ ... يجوز على الأحياء فيها الترحم
حياةٌ كسطح الماء والماء راكدٌ ... فليس بها شىءٌ يسرٌّ ويؤلم
وما أبتغى إلاّ حياةً عنيفةً ... تسرُّ فأرضى، أو تسوء فأنقم
حياةٌ كلجّ البحر والبحرُ زاخر ... تدوّى بها الأنواء والرعدُ يهزم
حياة بها جدٌّ ولهوٌ، بهـا رضًى
وسخطٌ، لها طعمان : شهدٌ وعلقمُ

* * *

حنانيكَ إنى قد برمتُ بفتيـةٍ ... أروحُ وأغدو كلَّ يوم إليهمُ
صغارٌ نربيهم بمثـل عقولهم ... ونبنيهمو لكننا نتهـدّمُ
لأوشك أن أرتدّ طفلاً لطول ما ... أمثل دورَ الطفل بين يديهمُ
فصولٌ بدأناها وسوفَ نعيدُها ... دواليك، واللحن المكرر يسأم

فمن كان يرثى قلبه لمعذَّب فأجدرُ شخصٍ بالرثاء المعلَّم
على كتفيه يبلغُ المجدَ غيرُه فما هو إلا للتسلُّق سلَّمُ

* * *

يقولون : منطيقٌ أغرُّ بيانهُ فقلت لهم : لكنَّ حظيَ أبكم
أرى الحظَّ منقاداً لكلِّ مهرِّجٍ فأما على الأكفاء فهو محرَّم
ألا فليسُدَّ من شاء حسبي أنني ضننت بماء الوجه حين تكرموا

فهل هناك ما هو أوهى من هذه القوارير التي كنى بها عن أمانيه العاثرة، وقد وصفها بكونها تتحطم من مس أخف وألطف النسمات؟ وهل هناك ما هو أدل على حقيقة الواقع من أن لا منطق على الإطلاق في توزيع الحظوظ ؟ وربما صح هذا الحكم على الشهرة نفسها إذ لم يقم أديب إلا اختلف الناس في تعيين مقداره ، وطالما كانت الشهرة نصيب من لا يستحقها لعوامل وأسباب لا علاقة لها بالكفاية المجزدة ، كأن تسخر الأقدار لغير كفء ما لا تسخره للكفء من المذيعين والمطبلين والمزمرين لهوس أو غاية في النفس. وأين نجد صورة للعزلة التامة لقيم في القطر المصري كالأهرام والمقطم ، يلي ذلك وصف الضجر والسآمة ، فحياة المعلم والأدوار التي يمثلها ، فالاعتصام بعد كل الشكاوى المؤلمة بالصبر والاستمساك بالأنفة والإباء ؟

ثم عثرت على صورة ثانية استوقفت منها أن محمود غنيم لا يعدم تعزية، مما هو فيه مستمدة من حيا صغيريه اللذين لا يسأم مداعبتهما كلما عاد إلى منزله عودة الطائر إلى عشه طلباً للراحة والدفء والقوت وهاك ما يقوله في وصف هذا المشهد بعنوان : « حول المدفأة - أنا وابناي » :

وأطيب ساعِ الحياة لديَّا عشيةَ أخلو إلى ولديَّا
فأُجلس هذا إلى جانبي وأُجلس ذاك على ركبتيَّا
وأغزو الشتاء بموقد فحمٍ وأبسطُ من فوقهِ راحتيَّا
وأحسبني بين طفلي «شاهاً» وأحسب عشيَ قصراً عليَّا
وما حاجتي لغذاء وماء بحسبيَ طفلايَ زاداً وريَّا

* * *

فيا ليت شعري أتمتدُّ بي حياتي فأجنيَ غرس يديَّا
وأشهدَ طفليَ حين يشبُّ فتى عالي النفس شهماً أبيا
أبوك امرؤ من رجال الكلام فكن أنت يا ابني امرأً عمليا
فما احتقر الناس إلا الأديب ولا احترمَ الناسُ إلا الغنيَّا

* * *

أيا ابنيَّ أحبب بما تكسران وأهون بما تتلفانِ عليَّا

فانظر إلى العاطفة الوالدية الصادقة المتجسمة في هذه الأبيات وأكبر مني التضحية إلى أقصى حدودها كرماً لتلك العاطفة الفياضة بالشعور والحنان ، إذ ترافق عدم الإمكان الاستهانة التامة بكل ما يمكن أن يكسره الصغيران المحبوبان ، أو يتلفاه إلى حد استحلاء الإضرار وتشجيعهما عليه ، وما يتخلل ذلك من تمنيات وعظات .

ومما تقدم رأيت كل الجمال في روح محمود غنيم. على أني افتقدته في رسمه القاتم في بعض صفحات «الرسالة» شاهداً على أن لا علاقة ألبتة بين المظهر والمخبر ، ولكن حبذا الدمامة في الخلق إذا كانت ترافقها مثل هذه الوسامة في الخلق . وعلام أشكو مما يزيد غنياً شبهاً بحافظ كما يزيد ترشيحه لخلافته تبريراً !

هذا هو محمود غنيم الذي أقدمه الآن لقراء العصبة فخوراً بأني أقدم شاعراً مجيداً، إذا لم يضارع حافظاً في أصيله فإنه يجاريه في ضحاه، وها حاضره يبشر بمستقبل ربما كان أخصب وأجدى . ومما يرجح كفته في نظري هو عقم محيطه بالنسبة إلى محيط حافظ أيام كان يطلق صيحاته وأغاريده في القاهرة حيث المجال الرحب والموحيات والمستثيرات على أنواعها ، وكلها مما يفجر الشاعرية ، ويبعث الكوامن ويعين على الإجادة. أضف إلى ذلك أنه منذ البداءة حافظيٌّ في تأنقه وتدقيقه وبراعته في تخير الألفاظ والبحور والقوافي التي تماشي روح القصيدة ، وتكسبها خاصة الإعراب عن مرامي ناظمها ، وتساوق حركات وسكنات الحدث الذي تدور عليه أو المناسبة التي اقتضتها

أما مستندي فما سبق وما سيلي مما اقتبسته واجتزأت به مكرهاً بداعي ضيق المجال ، من بضع قصائد اخترت في ما أختاره وما أهمله من أبياتها الحسان، وهذا بذاته يدعو إلى الإعجاب بخصب

قريحة الشاعر وسعة اطلاعه ومقدرته على الإجادة ، حتى فى أتفه الموضوعات المطروقة وأبعدها عن استرعاء الالتفات ؛ إذ يغلب فى الشعر أن يكون الجيد منه هو الأندر ، فكيف وقد رأيت الندرة نصيب ما يمكن الاستغناء عنه على رغبتى فى الاختصار تفادياً من التطويل وخشية الملل ؟

شعر تصويرى سداه الدقة ، ولحمته الأمانة فى الأداء ، ونزعة حرة ، وفكر طليق من سيطرة الأوهام ، وخيال واسع يتغلغل فى الأعماق ويكشف الخفايا ، ونفس طموح لا يكبح جماحها إلا الإباء المستحب .

اسمعه يصف راتبه بأبلغ ما يدل على سهولة وسرعة التفلت وقلة الوفاء بالحاجة ، ويجيد التخلص إلى نصيحة غالية يسديها إلى أبناء قومه محذراً إياهم من عواقب الوكل ، وكارهاً لهم الأعمال ذات الكسب المحدود :

ولى راتب كالماء تحويه راحتى فيفلت من بين الأصابع هاربا
إذا استأذن الشهر التفت فلم أجد إلى جانبى إلا غريماً مطالبا
فقل لشباب النيل قالة ناصح تعاف له أخلاقه أن يواربا
إذا مصر لم ترفع قواعد مجدها بساعدها لم تقض منه مآربا
وإن نك فى كل المرافق عالة على غيرنا عشنا بمصر أجانبا

* * *

وهناك مطالب أخرى لم تفته فى أبها الإجادة المبتغاة . فمن قوله مخاطباً ملكة الجمال العالمى المصرية بعنوان « ملكة الجمال » بيتان ضمنهما نزعته الاستقلالية ، هما :

كم عاهل ذى سطوة لم يفتتح قلباً وإن فتح المدائن والقرى
ما للمها فى مصر تحكم عالماً والليث يعجز أن يعيش محرراً

* * *

وما هى إلا فترة من الزمن حتى يتجلى غنيم فينزع عنه أطمار التذمر والشكوى ويرتدى وشاح الحكمة والاختبار ويتسنم منصة الوعظ والإرشاد ، مصوراً حقيقة الحياة ، ومزيلاً انخداع البشر بأنفسهم ، ومبطلاً ما يدعونه عادة من عفة وتقشف ، ويرشحون ذواتهم من أجله لسكنى دار الخلود ، كما يضرب الرياء والتظاهر ضربة قاضية ، إذ يقول بعنوان « المادة » :

فتشت بين الناس عن زاهد فلم تقع عينى على واحد
ما أزهد المرء إذا لم يجد وأبعد الزهد عن الواجد
فقيمة الشعب إذا قستها بقيمة الصادر والوارد
قد يحسد المرء على رزقه ولا أرى للفضل من حاسد
لم يختر الناس دياناتهم بل أخذوا بالمذهب السائد
ليس جمال الطبع فى غادة مثل جمال اليد والساعد
يا زاعم العفة فى حبه ما تبتغى من كاعب ناهد ؟
لم يتق الله امرؤ للتقى بل لنعيم الجنة الخالد
لولا جمال الحور ما لامست أرض المصلى جبهة الساجد
هل كنت تلقى فى الورى ساعيا لو كان يسعى الرزق للقاعد
سيان من يسعى إلى قوته بالسلب أو بالورع الزائد
كم لحية أجدى على ربها من ألف سهم بيد الصائد
صاح دع الروح ودع قدسها نحن عبيد الجسد الفاسد

* * *

فإذا وقفته على الشاطئ الرملى فى الإسكندرية يمتع طرفه بمرأى المستحمات ويشبع نهمه من محاسنهن خلع العذار وأجاد فى وصف ذلك المشهد البديع وسال رقة بمقطعات غزلية موشاة منمقة مطرزة كأنها بستان فيه من كل فاكهة زوجان . وهذا بعضها :

أعوارٍ تلك الدمى أم كواسى بلباس يفصل الأجساما ؟
لا وقاه الله البلى من لباس إنه كان واشياً نماما

* * *

أيها المشتكى من الإقلال متع النفس بالجمال متاعا
لم يبيحوا لنا شيوع المال وأباحوا لنا الجمال مشاعا

* * *

لا تضيقوا بالمنعم المكشوف وتقولوا : خير الجمال المصونُ
ما غناء الشذى بغير أنوف ؟ قيمة الحسن أن تراه العيون

وانظر إلى رشاقته فى وصف راقصة أخذت عقله بخفتها ومرونة أعضائها وحسن تثنيها إذ يقول :

كأن تحت إخمصيها جمرة مشتعله
باسمة تحسبها كل فتى تبسم له
أبدلها خالقها بكل عظم عضله
جسم كموج عيلم تسبح فيه الأخيله
تحسب فيه كل عضو وحدة منفصله
في مرقص لا يسرف الهم فؤاد نزله
الهم فيه واقف خجلان يخفي خجله
دعني أضل ساعة عبء التقى ما أثقله
ما كنت من أهل المسوح والذقون المسبله
كورع مصطنع وعفة مفتعله

* * *

وأخيراً انظر إليه في النقد الصائب واللوم العادل والتنبيه إلى الواجب ، إذ يصف بني قومه الذين يترسمون خطى الغرب دون تخير أو استثناء :

يترسمون الغرب حتى يوشكوا أن يعبدوه عبادة الأصنام
ما قلدوهم مبصرين وإنما تبعوا نظامهم بغير نظام
ما صاغ ربك من نضار خالص شعباً ، وشعباً من حصى ورغام

* * *

هذا الكثير المختار من بضع قصائد عامرة قليل من كثير ، ولعمر الحق إن شاعراً تقع له مثل هذه الإجادة وتصاد من ساحله كل هذه الدرر، لهو بحر زاخر لا يجوز أن نطمره أو نضع في سبيله الحواجز والسدود ، بل يجب أن نهيء له الحياة التي اختارها وأحسن وصفها فيما سبق لي نقله من أنات آلامه وحشرجات شكاويه ولعل هذا الصوت الضعيف يصل إلى آذان القادرين من إخواننا المصريين ، فيجد صدى في نفوسهم يستفزهم إلى إنصاف هـذا الشاعر المجيد المغبون فيعود إلى مصر حافظها متقمصاً في شخص محمود غنيم .

توفيق ضعون

الربيع

في باريس

نظم الشاعر هذه الأغنية وهو موجع الجنب ، سنة ١٩٢٨ ؛ ثم نظر فيها وزاد عليها . وفي المقطع الثاني من القصيدة إشارة إلى انبثاق الربيع في باريس بعد طول حبس الشتاء له ، وإشارة إلى الثلج المغشي وجه الأرض يمحوه الربيع فيعيد العالم .

عانق العودَ وهاتِ همْسَ أنغامِ الشكاة
خفِّفِ اللَّمْسَ عن الأو تارِ واضربْ في أناة
كلُّ ما رنَّ وبثَّ الـهمَّ نَبْضٌ من فؤادي

يا ربيعاً واثباً كالنَّهْدِ من ظُلْمِ حِجابِ
ناثراً فوق مشيبِ الـأرضِ آياتِ الخضابِ
هدأ اللحظُ به هَدْ أةَ حيرانَ بهادِ

يا ربيعاً ناسجاً أسرارَ تَحنانِ الفتاة
حولَ أثمارِ رِطابٍ تتدلَّى داعيات
فرحِ الطَّيْشُ به فَرْ حةَ محرومٍ بزادِ

عُطِّلَتْ عيدانُك الغُنُّ بترداد عتابي !
جئتَ كالفجر يُعاني خدُّه جَهْمَ الضَّبابِ
جئتَ بالهوِ فؤاداً طاحَ مسلوبَ القيادِ

عانق العودَ وهاتِ همْسَ أنغامِ الشكاة
خفِّفِ اللَّمْسَ عن الأو تارِ واضربْ في أناة
كلُّ ما رنَّ وبثَّ الـهمَّ نَبْضٌ من فؤادي

باريس *بشر فارس*